نهاد سيريس

رياح الشمال

رواية

إهداء

إلى عبد الجليل سيريس...
والدي الذي ساهم بذكرياته في كتابة هذه الرواية.

الجزء الأول

"سوق الصغيّر"

(1)

في منتصف الطريق الواصلة بين باب الحديد وساحة بانقوسا، كما يحلو للناس أن يسموها، وأغيور أو أقيول، حسب المستندات الرسمية العثمانية، يقع سوق الصغيّر.

لم يكن هذا السوق في يوم من الأيام صغيراً، ولكنه سمي هكذا نسبة إلى سوق باب جنان أو سوق المدينة لضخامتهما، فإلى اليمين وأنت قادم من بانقوسا تقع خانات بريمو وبيرقدار للخضار، فهي تستقبل مئات العربات والدواب المحمّلة بالخضار والفاكهة يومياً، أما إلى اليسار فتقع مصابغ الخيوط وأسلاكها الممتدة بعيداً على الأسطحة والتي تنشر عليها جزز الحرير والقطن المصبوغة بألوان متعددة فاقعة تجعل منظر سوق الصغيّر جميلاً وقت الأصائل.

عند السوق مباشرة وباتجاه الشرق يقع مسجد صغير مبني بحجر الغشيم الحلبي الصلب اسمه جامع سوق الصغيّر، مقابل المسجد مباشرة يقع شارع يصب في زقاق طويل يمتد خلف الخانات يفضي إلى حارة الريش، ويصب أيضاً نزولاً في أغيور حيث يقع مبنى الريجي وحمام أغيور ومزار الولي سيدي محمد، هذا بالإضافة إلى سوق الباعة بالمفرق وصولاً إلى خانات آل المنجد والزيتوني ودكاكين آل السباهي والسلحدار، حيث تنتهي عند تخوم المقبرة العالية التي سميت بجبل العظام تفكها من قبل أهل حي اغيور، أخيراً وفي أقصى الشمال تقع مطحنة أقيول البخارية التي ركّبت في خان قديم أمام المقبرة مباشرة.

أمّا بمحاذاة مسجد سوق الصغيّر فقد شقت طريق صغيرة تقود إلى ساحة فيها نبع صغير سمي بالقسطل، كان الناس ينقلون ماءه إلى بيوتهم بواسطة أوان من الفخار وصفائح التنك، اسم هذه الساحة هو (السليمانية) نسبة إلى جامع السليمانية الصغير الذي يقع في طريق الماوردي، المتفرعة من الساحة التي تؤدي إلى قسطل الجورة.

غير بعيد عن ساحة السليمانية وفي نفس شارع الماوردي الذي لم يرصف بعد بأحجار الطرق السوداء، كان يقع بيت يتجه نحو الغرب، ذو باب عريض مصنوع

من خشب الحور الذي أصابه التسوس منذ زمن بعيد.

كان اسمه بيت الزيات، وكان عبارة عن دهليز يؤدي إلى صحن البيت الذي تشرف عليه غرفتان عاليتان سقفهما من العوارض الخشبية المستديرة المتوضعة بشكل متوازٍ جميل، وقبو تحتهما، يتم النزول إليه بأربع درجات، مقسوم إلى قسمين، القسم الخارجي نظيف ذو أرضية مصقولة وفيه رفوف توضعت عليها سلال البصل والثوم وأوعية البرغل والزيت وغيرها، أما القسم الداخلي فهو عبارة عن مغارة تم إهمالها فأصبحت مأوى للجرذان والعناكب والعقارب.

في الطرف الآخر من الحوش وبمحاذاة الدهليز بني المطبخ والمرحاض، كانت حوش الدار مظللة بشجرة تين برّي وفيها حوض من التراب الأحمر زرعت فيه نبتات الورد الجوري وعرق السوس وزهر السلطان ونبات جميل لورد النفنافة اللطيف المنظر.

كان البيت قد بني من قبل رجل محترم، ذي هيبة، معروف في السوق اسمه عبد الحميد الزيات، وقد قام هو نفسه بترميم البيت مرة أخرى قبل أن يموت، ذلك لأنه كان يستقبل في بيته كبار أعيان البلد.

كان لعبد الحميد الزيات عشرة أولاد، أصغرهم كان علياً الذي ولد وشبّ وتزوج في البيت نفسه بعد وفاة أبيه، كان علي يعمل في تجارة الزعتر، ولم تلد له زوجته صبياً إلا بعد أن رزق بأربع بنات، تزوجن كلهن قبل سن السابعة عشرة، لذا فقد فرح كثيراً وكاد أن يطق عقله، حينما وضعت له صبياً في أحد أيام الربيع فأسماه ربيعاً بن علي الزيات.

أقام تاجر الزعتر الأفراح ووزع الزعتر دون مقابل على الفقراء، وأعلن أنه سيحج إلى مكة في الموسم القادم شكراً لله على هديته له.

وفي السنة التالية، تهيأ للسفر إلى الحجاز، أخذ معه كمية لا بأس بها من الزعتر إلا انه لم يعد من هناك، فقد مات من جراء ضربة شمس، وحينما جاؤوا بخبره حدث عزاء كبير ولبست زوجته السواد عليه، واعتكفت في البيت سنة كاملة.

قام أحد أخوة زوجها بإدارة محل بيع الزعتر لعدة سنين، كان يقدم لها بعض المال لتعيل نفسها وتربي أطفالها، إلا أنه ما لبث أن سُرِق المحل وأغلق مما اضطر

الأم للعمل في الريجي كي تطعم أطفالها، خصوصاً وأن أخوة زوجها قد تخلوا عنها بسبب نزاعهم على إرث أبيهم وشقيقهم علي، إلا أنها استطاعت أن تزوج آخر بناتها بهية إلى شاب يتيم يعمل في حفر الآبار اسمه عمر بنبوك قدّم لها بعض المساعدة.

نشأ ربيع في البيت، كانت تتركه يلعب في الحارة مع الصبيان وتذهب إلى الريجي منذ الصباح الباكر وحتى المساء، وعندما كانت تعود من العمل، كانت تجده نائماً وقد تعفر بالتراب أو شجّ رأسه إثر محاجرة مع صبيان أغيور الشياطين.

كان ربيع يقود صبيان حارته في صراعهم مع صبيان أغيور، فقد كان يبدو اكبر سناً من الجميع، مع أنه كان في سنهم، كان طويلاً، صلباً، اكتسب قوته من جده عبد الحميد الزيات، كما اكتسب جمال الوجه من أمه.

في سن السابعة، أرسلته أمه إلى الكتّاب، قالت له: كفى، لقد أصبحت أكبر أزعر في البلد، عليك أن تتعلم القراءة والكتابة وأن تحفظ القرآن...، إلا أن الشيخ طرده في السنة التالية، قال لها: خذيه! لقد تعلم شيئاً، إنه ذكي، تعلّم قبل أقرانه، لا أريد أن أرى وجهه مرة أخرى!، وعندما عاد إلى البيت رجته أن يحكي لها السبب، فقال ربيع: هو البادئ، لقد ضربني بعصاه الطويلة، كنت جالساً فضربني.

فقالت: وأنت ماذا فعلت بعد ذلك؟

فقال: كسرتُ له العصا وضربته بها.

في اليوم التالي، أخذته إلى مدار قريب لها اسمه أبو حديدة، كان المدار عبارة عن معمل للنشاء، أخذه القريب أبو حديدة بعد أن وعدها بأن يعلّمه الصنعة، ولكن دون أن يجهده، فلم يكن ربيع قد أتمّ الثماني سنوات، إلا أن العمل كان يجهد الصبي كثيراً، كان يعمل منذ الفجر وحتى المغرب، وعندما كان يعود إلى البيت، كان يسقط على الفراش وينام، دون تناول العشاء، ومع ذلك تركته أمه يعمل، فالعزاء الوحيد لها هو تلك القروش القليلة التي كان يكسبها ويعطيها لأمه.

وما إن بلغ الخامسة عشرة حتى أصبح المعلم أبو حديدة يعتمد عليه في كل شيء، في البيع والشراء والعمل، كان يبدو كالضائع عندما يغيب ربيع عن المدار لأمر ما، وفكر صاحب المعمل... كانت لديه ابنة صبية اسمها عائشة، ربيع يناسب عائشة ويناسب أبا حديدة، راح يرسله إلى بيته لبعض الأمور، دعاه أحد أيام الجمعة

على الغداء في بيته، هناك، قابل ربيع عائشة، وكأي بغل مدار معصوب العينين، انبهر ربيع بجمال عائشة، ابنة الثالثة عشرة التي بكّرت كثيراً في مراهقتها، وما إن تأكد أبو حديدة من أن عائشة قد أسرت قلب ربيع حتى عرض عليه المشاركة في المدار، قال له:

– على فكرة... لقد بدأ التعب يتسلل إلى جسدي، وأنت تعلم أنني لم أرزق بصبي يأخذ مكاني ويريحني في العمل، أنت يا ربيع شاب نشيط وأمين، من الآن فصاعداً أنت شريكي في الثلث.

وما إن سمعت أم ربيع بهذا حتى وافقت على الذهاب إلى أم عائشة كي تطلب يد ابنتها لابنها. في الماضي كانت ترفض، كانت تقول: اتركنا من هؤلاء الناس، لو كان أبوك ما يزال على قيد الحياة، لكانت حياتنا أفضل، إلا أننا أقل منهم مستوى، أهجر التفكير في هذه الفتاة يا ابني، هم قوم ونحن قوم!

ولكنها الآن وافقت، أصبح شريك أبي حديدة، إلا أنها آثرت التريث حتى يستطيع ربيع أن يجمع بعض المال لشراء الجهاز الذي يليق بابنة أبي حديدة.

إلا أنه لم يمض على ذلك وقت طويل، حتى جاء الجفاف العظيم في سنة 1913 – 1914، فشحّت الأغذية وقل القمح، وبدأت علائم المجاعة تظهر على البلد، وفقد كثير من الناس أعمالهم، صرفوا أم ربيع من العمل في الريجي الذي لم يعد بحاجة لكثير من العمال، فقعدت في بيتها.

إلا أن هذا الأمر ما كان ليهمها أبداً، فابنها ربيع يعمل وقد أصبح شريكاً في معمل النشاء، ولكن أمراً خطيراً بدأ يعصر الصدور، فلم يعد الناس يسمعون عن الجمعيات والإضرابات والمظاهرات التي تنظم ضد الاحتلال العثماني فحسب، بل وصل إلى أسماعهم أيضاً أن حرباً كبيرة قد اشتعلت في مكان ما، وأن كل دول العالم راحت تُزَجُّ فيها.

إنها الحرب العالمية، الحرب التي أشعلها مجنون عندما قتل الأرشيدوق في صربيا، هكذا قالوا، يكفي أن تقتل ملكاً حتى تلتهب الأرض بمن عليها، ولكن، ما علاقة الباب العالي في مصرع الأرشيدوق، هل هو شقيق السلطان رشاد؟ ذلك الدب المتوّج؟ ... وأصبحت القضية إسلامية، فقد أعلنت الإمبراطورية العظيمة اشتراكها

في الحرب إلى جانب ألمانيا، وفي نفس ذلك اليوم التشريني العاصف صفق أبو حديدة كفاً بكف، وقال وهو يطقطق بلسانه:

– اشو صار يا ناس؟ وما دخلنا بالكفار إذا هم تقاتلوا!

إلا أن ربيعاً، الذي طفح حماسة لمجرد سماع الأخبار الأولى للحرب، هز رأسه كالرجال المسنين وقال:

– يا عم أبو حديدة، لا تقل ذلك، سنساعد الكافر على الكافر حتى ينتهوا. إلا أن الجميع ذاقوا طعم المأساة.

فقد تم تعيين أحمد جمال باشا والياً على سورية، مطلق الصلاحيات، وجاءت معه الأوامر الصريحة من الباب العالي (نحتاج للغذاء والقمح والوقود... والرجال) وراحت فرق الإعاشة تجوب البلاد والقرى لتصادر القمح والشعير والعدس والقطن والفحم والحطب وكل شيء يخطر على بالها، صادروا المواشي والبغال والأحصنة وكثيراً من الحمير، صادروا أيضاً عربات النقل.

وتوقفت الحركة في البلد، وفي سوق الصغيّر، لم تعد الخانات تستقبل أطنان الخضار والفواكه، وتوقفت المصابغ عن نشر شلل الخيطان الملونة، ولم يعد أحد يقوم بإنارة شارع الماوردي الجميل الذي تظلله في الصيف أشجار التين البري التي راحت تمد أغصانها الوارفة من ساحات البيوت عبر الأسطحة، وتوقف معمل أبي حديدة للنشاء وصادروا له بغلتيه، فقعد ربع في البيت لا يخرج منه إلا ليقعد في مقهى أبي حسين في سوق الصغيّر أو في مقهى أبي سلمو عند ساحة باب الحديد.

وما إن مرّ أقل من عام حتى كان ربيع وأمه قد أكلا نقود المهر الذي جمعه ليقدمه إلى أبي حديدة لقاء تزويجه ابنته عائشة، إلا أن أم ربيع أحست بفطرتها أن أبا حديدة قد صرف النظر عن هذا الزواج ولو مؤقتاً، فقد توقف عن استقبال ربيع في بيته، وراح يختلق الأعذار لتأجيل أي حفل زفاف قد يخطر على بال النساء، فالدنيا قد ركبها عفريت، والرجال يسحبون زجراً إلى الجيش، وهل على رأس ربيع بن علي الزيات خيمة؟

وبالفعل، فقد صدق تنبؤ أبي حديدة، ففي صباح أحد أيام تموز الحارة 1915، خرج ربيع من بيته قاصداً مقهى أبي حسين غير البعيد عن جامع سوق الصغير،

جلس على كرسي من القش وطلب قهوة، ثم راح يرشفها وهو يستمع إلى رفاقه على الطاولة الذين كانوا يتحدثون عن مغامراتهم الماضية في بيت العاهرات الواقع في محلة (بحسيتا) في حلب، أحدهم تحدث عن سارة اليهودية بسوء، فكادت أن تحدث مشاجرة بينه وبين ربيع الذي كان يفضلها، وفجأة قطع الطريق عند مداخل سوق الصغير، قطعه الجنود بالحبال، كي لا يتمكن أحد من الهرب، بقي ربيع ورفاقه جالسين، فقد كانوا صبياناً في السادسة عشر من عمرهم، (والجنود يأخذون الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والخمسين فقط)، اقترب ثلاثة جنود منهم فسارع أحدهم وأمسك بقبضته كتف ربيع وقال للجنديين الآخرين:

– خذ هذا!

صاح ربيع: ماذا؟ أنا صغير... أنا صغير!

ثم راح يقنع الجندي أن عمره لم يتجاوز السادسة عشرة بعد، وراح رفقاء ربيع يدعمون كلامه، إلا أن الجندي، فاقد الصبر، وصاحب أطول ذراعين شاهدهما ربيع في حياته، انبرى وصاح في وجوه الصبيان الآخرين مهدداً:

– اسكتوا وإلا أخذتكم معه، إنه رجل أكثر مني!

فصمتوا... وراحوا يراقبون الجنود وهم يجمعون الرجال ثم وهم يسوقونهم إلى ثكنة بانقوسا، انطلق أحد الصبيان كالسهم، دق باب بيت أم ربيع، ولما فتحت له، كلمته من خلف الباب، أخبرها بالذي حدث، وهي غير مصدقة صرخت صوتاً سمع حتى شارع سوق الصغير الذي وقف فيه الناس وهم يحصون بالعدد والاسم من أخذهم الأتراك.

لم تعرف كيف لبست ملحفتها وانطلقت راكضة وهي تعلن أبا عثمان الكبير، وانطلق خلفها جمع من الأطفال والصبيان وهم يشرحون لها كيف قام جنود فصيلة التجنيد بفعلتهم.

كان عليها أن تثبت أن ربيعاً مازال صبياً في السادسة عشرة من عمره، وليس أكبر من ذلك كما يبدو، ولما وصلت إلى باب الثكنة الجنوبي ومعها الجمع الذي تضخم، رفضوا التحدث معها ومنعوها من الدخول لمقابلة القائم مقام قائد الثكنة، عندها راحت تولول ثم مزقت ملحفتها وقذفت الحرس بالحجارة وشتمت عريفاً ذا كرش

متدل أسفل بطنه، ولما أصبح عدد النسوة اللواتي كن يتظاهرن خارج بوابة الثكنة خمساً، خرج ملازم عربي يبلغ من العمر خمسين سنة وتحدث إليهن بهدوء، قال:

– إياكن وهذه الأعمال، كل شيء سينصلح، وإذا ما تماديتن في الصراخ والعويل، فإنهم سوف يقومون بتعذيبهم، وضربهم، وقد يسجنونهم، الآن... اذهبن إلى بيوتكن وأنا أعدكن بإرسال رجالكن في إجازة قريباً جداً.

صدقت النسوة كلام الملازم، فعادت أم ربيع إلى البيت، وبعد ثلاثة أيام عادت وسألت عن ابنها، إلا أن الحارس أخبرها أنهم أرسلوا إلى مكان مجهول في حلب، لم يرسلوا إلى الحرب بل مازالوا في حلب، إلا أنها سرعان ما فهمت أنها قد فقدت ابنها، فقدته إلى الأبد، ولدها الذي ولدته على أربع بنات، أخذوه منها وسيرسلونه كما قالت النسوة الأخريات إلى بلاد لا يعرف أحد اسمها وأين تقع، وهناك سيلاقي حتفه مثل جميع الرجال، فبكت بحرقة، كانت تستوقف الرجال العجائز في حيهم والذين كانوا يعرفون زوجها، وتحدثهم عن مصيبتها، كانت تسترجع صورة ابنها بسهولة، فهو يشبهها كثيراً إنه صورة لها، طويل وعريض، أشقر الشعر وصاحب عضلات مفتولة وشخصية قوية، وعندما كانت تجمع أغراضها في بقجة كي تترك البيت وتذهب إلى بيت ابنتها بهية، راحت تسترجع في ذهنها صورة ربيع الزعيم بلا منازع لصبيان حي سوق الصغيّر والذي كان يقودهم في حربهم ضد صبيان أغيور الشجعان، الذين كانوا يتفاخرون بكونهم من أغيور ويعيّرون ولدها والآخرين لأنهم من سوق الصغيّر، كانوا يأتون وهم يصرخون: (فتّح وردة جورية، لعيون الأغيورجية).

إلا أنهم لا تمضي ساعة، حتى يولوا الأدبار مختفين في أزقة أغيور الضيقة.

وبعد عشرة أيام قبضوا على زوج ابنتها بهية وابن عمه صالح وأرسلا بدورهما إلى ثكنة بانقوسا.

بعد ليلة قضوها في تلك الثكنة اللعينة، رحِّل ربيع ورفاقه إلى معسكر للجيش العثماني مقام في (مسلمية) حلب وهناك، خضعوا لتدريب متواصل على الركض والغوص في الوحل والضرب واللسع بالشتائم، ودون أن يعلم أحد إلى أين، تمّ صفهم في أرتال أحادية وأعطي الإيعاز للصعود إلى عربات القطار المغلقة، حيث افترشوا الأرضيات الخشبية وهم يحسون بالاختناق بسبب سوء التهوية. وبعد ثمانية أيام من

السير والتوقف وصولا إلى الأستانة التي شاهدوا شوارعها وأبنيتها من خلال الشقوق في جدران العربات الخشبية العتيقة، ثم أنزل الجنود في محطة "حيدر باشا"، وناموا ليلتهم الباردة في العراء، وفي الصباح الباكر صعدوا إلى قطار آخر كان محملاً بالذخائر والجنود وانطلق خارجاً من الأستانة باتجاه الجنوب الغربي، حيث المضائق التي كان الجيش العثماني يدافع عنها في مواجهة الجيشين الإنكليزي والفرنسي.

كانت المضائق (الدردنيل) في منطقة (غاليبولي) تتعرض بالفعل لضغط متواصل من قبل الحلفاء، كان الهدف من احتلالها، فتح الطريق البحري أمام سفن الحلفاء للوصول إلى شواطئ روسيا على البحر الأسود والاتصال بها لدعمها في مواجهة الأتراك والألمان الذين زادوا من ضغطهم على حدودها الغربية وأصبح الوضع العسكري على هذه الحدود سيئاً، إلا أن الصورة لم تكن واضحة تماماً للجنود عندما أنزلوا هناك، كانوا خائفين، مشدوهين وغير مسلحين بعد.

أرسلوا ربيعاً وسبعة آخرين من بلدته إلى إحدى السرايا، سجلوا اسمه في سجل السرية وأعطوه سيفاً وقالوا له: اقتل إنكليزياً وخذ بندقيته! ثم جعلوه يبصم بأصابعه العشرة. عاينه طبيب أشقر . ألماني . تفحص عينيه وتحت جفنيه وأسنانه وخصيته، دهنوا رأسه وجسمه بدواء كريه طارد للقمل، ثم أرسلت السرية بأجمعها إلى منطقة الخنادق، هناك حلت السرية رقم /333/ مكان السرية رقم /13/ التي كانت قد أبيدت عن بكرة أبيها في آخر قتال نشب مع الإنكليز منذ يومين، وما كادوا يستقرون في الخنادق المحفورة في التربة الحوارية البيضاء حتى شن العدو، الذي كان أفراده يعتمرون قبعات حديدية غريبة الشكل، هجوماً استطاعوا فيه الوصول إلى الخنادق التركية، نزل الإنكليز إلى خنادق الأتراك بغتة وحدثت مذبحة رهيبة، كان الجنود يذبحون بعضهم بعضاً بالسيوف والسكاكين، إما أن تذبح عدوك الذي أمامك، أو إنه سيذبحك لا محالة، إلا أن ربيعاً الذي تبللت ثيابه العسكرية الخاكية بالبول والقيء، لم يكن على استعداد بعد لتنفيذ هذه الفكرة.

أُنقذ ربيع في آخر لحظة، كان جرحه عميقاً في الصدر، لكن رئتيه وقلبه لم يصابا لحسن حظه. نزف كثيراً، إلا أن جسده القوي تعافى من جديد، بعد أن قضى شهراً ونصف في تلك القرية البعيدة عن الخنادق والتي كانت تسمى المستشفى حيث

يتمدد على الأرض ألوف الجرحى دون أدوية وأطعمة كافية.

كان شفاء الجريح مرهوناً بقوته الجسدية وحظه، فليس هناك من يسأل، أما الأطباء الذين كانوا يتنقلون بين الجرحى في غير مبالاة، فقد كان عملهم، بتراً للأعضاء المتفحمة فحسب، وعلى الجريح أن يداوي نفسه ببضع حبات من الكينا المرة اللعينة.

إلى جانب ربيع كان يتمدد رجل عراقي من البصرة، كان قد فقد ذراعاً وعيناً، إلا أنه استطاع أن يعيش بعد أن نزف نصف دمه، كان قوياً كالبغل، فاستطاع أن يحدث ربيعاً عن هذه الحرب اللعينة وعن جمال بساتين البصرة والأهوار.

كانت الحرب العالمية قد بدأت في تموز من عام 1914 وخوفاً من روسيا القيصرية قامت تركيا بعقد حلف مع ألمانيا في آب وبذلك أصبحت من دول المحور، ولكي تساعد تركيا ألمانيا دخلت الحرب في تشرين الأول وقامت بهجومها على روسيا في الشتاء، في منطقة القفقاس، إلا أن الهجوم باء بالفشل وكان ذلك العراقي من البصرة مجنداً في تلك الحملة، إلا أنه عاد سالماً مع خمسة وعشرين ألف جندي بقوا من أصل مئة ألف، فلقد ماتوا في الطريق إلى الحملة من الجوع والبرد، وكان الثلج يسقط آنذاك على الجبال الشاهقة والوديان التي قطعتها قوافل الجيش فسقط ألوف الجنود متجمدين من البرد القارس ودفن آخرون في الثلوج، ومات خلق كثير من الجوع والنزلات الصدرية ومن تيفوس القمل، وحينما التحمت القوات كانت الذخائر قد أصابتها الرطوبة، وكثير من البنادق كانت معطلة، وكانت المدافع قد تركت في الطريق، لصعوبة جرها، وعاد الجيش وهو لا يملك سوى ربع أفراده وهم لا يصلحون لأية معركة.

ومع أن أغلب الباقين كانوا غير مجهزين جيداً ومصابين بفقر الدم والتيفوس، فقد تم نقلهم إلى اليونان وعسكروا في السهول الفاصلة بين مدينة سالونيك والبحر، فحفروا الخنادق ومكثوا فيها أشهراً وهم لا يعلمون من سيحاربون إلى أن أنزل الحلفاء فرقهم العسكرية من البحر (قبالة سالونيك) وهكذا جمد الموقف هناك وتمترس المتحاربون في الخنادق يهاجمون بعضهم بعضاً، وإلى هناك أرسلوا ربيعاً الزيات بعد أن شفي من جرحه، وبعد مدة أرغموا ربيعاً على الالتحاق برتل يسير على الأقدام

نحو الشمال الغربي وكانت الأمطار تهطل بغزارة مخلفة سيولاً وأطياناً على الطرقات الوعرة، وكانت ألبسة الجنود وأحذيتهم قد تبللت تماماً بالمياه حتى وصلت الرطوبة إلى العظام، وبعد مسير ثلاثة أيام بلياليها وصل الرتل إلى منطقة الغابات فنزلوا في خنادق محفورة بجانب غابة كثيفة، وقعد ربيع في الخندق المليء بالماء والوحل ونام على الفور، وهو مقرفص، وهكذا فعل كثيرون غيره.

* * *

طلع الفجر على الخنادق المتعرجة إلا أن الضباب كان كثيفاً، وامتدت يد غريبة لا ترى تمسح على وجه ربيع الزيات ولحيته الزغبية النابتة، فسرى دفء رقيق فيه، فتح عينيه إلا أنه لم ير أحداً بجانبه، كان يحم بأمه، لعن نفسه لأنه استيقظ، وقال في نفسه:

– صرت كالكلب، يا عم ربيع؟

كان الطين يلوثه من قبعته حتى حذائه، وكان البرد الذي تسلل إلى عظامه يمنعه من الحركة فقد كانت قدماه غائصتين في الماء طوال الليل.

نظر إلى طرفي الخندق فرأى مجموعة من الجنود متكومة على بعضها تدخن سيجارة ضخمة ملفوفة كيفما كان وهم يتناقشون، عرف منهم بعض الناس الذين جاء معهم بعد خروجه من المستشفى، كان احدهم يقول بالتركية:

– كنا نزرع ثلاثة فدادين... نحن عشرة أشخاص.

فرد آخر:

– الزراعة في هذه الأيام أسوأ من الماضي، ما أن تجني المحصول حتى يأتي أولاد القحبة هؤلاء ويأخذونه، ونحن نبقى باقي السنة دون شعير، فنزرع البطاطا ونتركها مطمورة في الأرض، في السنة قبل الماضية حتى البطاطا لم تكن كافية.

– أبي يزرع التتن.

– أعطني السيجارة، لا تكن أنانياً.

– البارحة قتلوا إنكليزياً في الغابة ووجدوا معه سجائر معطرة.

تلفت أحدهم فوجد ربيع الزيات جالساً يصغي إليهم فصاح صاحب الوجه

المجدور والذي كان يمسك بالسيجارة:

– تعال اشرب يا ابن العم، مد له السيجارة، تعال... لا تستحي كالبنات، أنت جندي في جيش السلطان!

جلس ربيع الزيات إلى جانهم ودخن قليلاً ثم سلّم السيجارة إلى جندي آخر ممتلئ الجسم، أحس بدوخة وحرقة في زلعومه. سعل ومسح عينيه اللتين أثارهما الدخان فضحك الجنود، ثم قال المجدور:

– من أين أنت يا أخ؟

– من حلب.

– من حلب؟ وكيف وصلت إلى هنا؟

– مسكوني وجندوني.

قال آخر:

– رجال سورية يرسلونهم إلى جبهتي قناة السويس والعراق.

– هذا إذن حظي.

سكت الجميع برهة، كان ربيع الزيات يرتجف فيشد معطفه عليه بلا فائدة، أعطوه السيجارة مرة أخرى، ولعلهم يشفقون عليه فشد نفساً عميقاً وهو يحس بامتنان لأصدقائه الجدد فسعل وقال:

– نحن إذن في اليونانستان.

فلم يجب أحد فقال:

– كنت في الخنادق القبلية وجرحني أولاد الكلب هنا (أشار إلى صدره) ولكن الله ستر وفي المستشفى كانوا يقطعون الأيدي والأرجل كما يقطعون الفجل، أظن أنني سأموت من البرد قبل أن يقتلني الإنكليز هؤلاء، أو ربما سأغرق في هذا الخندق.

ضحك الرجال ضحكة اهتز لها الرجل السمين، سأله أحدهم:

– هل قتلت أحداً من الجنتلمان؟

– من هؤلاء؟

– الإنكليز.

– لا... إنني لا أملك بندقية، بل سيفاً لا أعرف كيف أستخدمه.

– عليك أن تتعلم أيها الأخ إن أردت أن تعيش، فالبنادق في هذه الحرب لا تعمل جيداً والرصاصات مسترطبة، منذ مدة أحرقنا عجلات المدفع لأن القنابل أصبحت فاسدة.

انبثق قرص الشمس من الشرق أحمر يبشر بالدفء، وعمت الحركة الخندق كله، نهض ربيع بعد أن انفض الجميع وألقى نظرة على السهل، على بعد مئتي متر كانت خنادق الإنكليز، ولا يفصل بينها وبين الخنادق الصديقة أي ساتر ولا حتى شريط مانع كما كان في الجنوب.

كانت خنادق الإنكليز تعج بالحركة، فقد نشروا ستراتهم وقبعاتهم وراحوا يضخون مياه الخنادق بواسطة أواني الطعام، كان ربيع يشاهدهم، لأول مرة مسالمين، يسيرون دون خوف بجانب الخنادق، وكانوا يعرضون أجسادهم للشمس، وكأن اليوم المشمس هو يوم سلام بالنسبة للجميع، وبدأ الأتراك أيضاً بالاغتسال وتنظيف الخنادق، وقام ربيع بصنع مكان خاص له، للنوم، في الخندق ثم اغتسل ونشر ثيابه المتسخة والرطبة تحت أشعة الشمس الباردة. جلس على حجر بجانب الخندق يتأمل الإنكليز وهم يروحون ويجيئون.

كانت الشمس قد غدت حامية وكأن كانون الأول لم يعد له وجود، أحس بالنعاس إلا أن الجوع كان يقرص معدته، عليه أن يصبر حتى الظهر لنهم يوزعون الطعام مرة واحدة في اليوم، كان الإنكليز يلعبون كرة القدم، وكان المتفرجون هم من الإنكليز والأتراك على السواء حيث انقسموا في التشجيع ما بين الفريقين، وكان الجنود يصرخون ويصخبون.

– أي حرب هذه، لو يعلمون ما جرى في الخنادق القبلية منذ شهرين، قال في نفسه.

أغلق عينيه وراح يتذكر الواقعة، لقد رأى إنكليزياً يذبح تركياً، وبعد أن ذبحه راح الدم ينبجس من قربته كأنه نبع حقيقي، ثم راح التركي يشخر بتشنج بينما جحظت عيناه وكأنهما ستسقطان على الأرض يا الله، لا أريدهم أن ينتقموا الآن، أي كلبة ابنة كلبة هذه الحرب. قال في نفسه وأضاف: لعلهم سيرحلون قريباً ويتركوننا نذهب إلى

بيوتنا صاح الجنود بعد أن سدد أحد الفرقاء هدفاً، انتبه ربيع وعاد يتابع المباراة، فرأى رجلاً أشقر يقترب من الأرض الواقعة بين الخنادق وهو يحمل صرة، كان الرجل يسير باتجاهه، توقف في منتصف المسافة وبدأ يصيح بلهجة أجنبية:

– محمد ... محمد!

كان الإنكليز ينادون على كل عربي وتركي باسم محمد، قال ربيع في نفسه: اسمي ربيع، إلا أن الإنكليزي تابع الصياح وراح يشير لربيع أن يأتي.

– ماذا تريد يا ابن الـ ...؟

– محمد ... محمد!

صاح وهو يشير إلى الرزمة.

في هذه الأثناء جاء جندي واقترب من ربيع وكلمه:

– إنه يريد أن يعطيك خبزاً.

– خبز ... ولماذا أنا بالذات؟ قال ربيع.

– إنهم يفعلون ذلك غالباً. اذهب وخذه! قال الرجل.

– لا... لا. أريد مشاكل، يكفيني ما أنا فيه.

– سوف أحضره لك، قال الرجل، وانطلق باتجاه الإنكليزي، بعد أن اجتاز الخندق.

وقف الرجل على بعد عشرين متراً من الإنكليزي، فقذف الأخير الرزمة وكلمه ثم استدار وركض، فاقترب الرجل من الرزمة والتقطها ثم ركض عائداً.

راح الرجلان يقضمان اخز بنهم، كان حلو المذاق من طحين القمح.

– افترضت أنه يريد قتلي، قال ربيع، فقال الرجل باستغراب:

– ولماذا؟ إننا لا نتقاتل الآن.

– ولماذا يعطيني الخبز مادمت سأقتله فيما إذا حدث قتال؟

– على الأقل، لقد نسينا القتال، فمنذ شهر لم يحدث شيء. قال الرجل.

كان الرجل أسمر وذا ذقن مدببة ولا يشبه الأتراك، وكان نحيفاً وعيناه زرقاوان، بصق وأخذ نفساً عميقاً، ثم قضم من جديد رغيف الخز، وراح يمضغ بسرعة.

قال الرجل بالعربية وفمه مليء بالخبز:

– اسمي محفوظ، أنا تركي، إلا أنني أتكلم العربية، يقولون إنك أتيت البارحة وكنت مصاباً.

– صحيح.

– سوف تعتاد على العيش هنا وعليك ألا تقترب من الضباط.

– أين هم الآن، إنني لا أرى ضباطاً؟ سأل ربيع.

– إنهم يختبئون في الغابة، وأضاف بصوت خافت، إنهم أنذال.

عبثت الريح بشعر محفوظ فانكشف أثر جرح طويل في رأسه واصل إلى جبهته. كان منظره مضحكاً وهو يمضغ الخبز، فقد تكورت طابة كبيرة في كلا خديه بحيث ضاعت ذقنه بين الانتفاخين وتطاول فمه وصغُرت عيناه، مسح ربيع أنفه كم معطفه ثم شرق كي يسلّك صوته.

– ضربوك على رأسك، أولاد الحرام . آ؟ سأل ربيع.

– كادوا يقتلوني، كان ذلك في الصيف، ذهبت لأسرق من الإنكليز أطعمة وسجائر، ولكنهم شعروا بي وحسبوا إنني أتسلل لقتلهم، لا أعرف بالذات ماذا حسبوا، المهم أنهم هجموا عليّ وضربني أحدهم بالسيف على رأسي، الحمد لله أنهم حسبوني قد قتلت فتركوني، وزحفت طوال الليل إلى الخندق، كنت أشعر بظوظ رأسي ينبض تحت يدي، وقد أنقذني طبيب ألماني.

عبّ قليلاً من الماء من كوز معدني ثم راح يلف سيجارة في ورقة عتيقة طبع عليها نداء من الإنكليز إلى الجنود الأتراك والعرب، أشعل سيجارة وهو يتابع بنظره عصافير السيجارة الحقول وهي تطير جماعات فوق الأرض المشبعة بالأمطار، حطت العصافير فوق شجيرة وعلا صوتها وهي تزقزق بلا نم، رد عليها شحرور من الغابة، فجاء صوته بعيداً وعميقاً.

تابع محفوظ بعد أن مسح عينيه من الدمع الذي طفح فيهما من دخان السيجارة الثقيل ثم تمطى ومد قدميه فبان الحذاء العسكري الإنكليزي الذي يرتديه. كان محفوظ قد غنمه من جثة جندي إنكليزي قتل في خندق الأتراك:

– بعد أن أصلحوا لي رأسي بعت البندقية وهربت إلى قريتي التي هي في ضواحي أدنه، قررت أن لا أحارب بعد ذلك أبداً، وفي الليالي كنت حلم برجل يحمل

فأساً ويهوي به على رأسي، وبعد مدة أصبحت كالمجنون بسبب الصداع الذي انتابني، كنت أرى المجندين يمرون خلال أدنه فأحس بالغثيان، وفي إحدى المرات لحقتني وشاية فجاء رجا الشرطة وقبضوا علي وأنا مختبئ في مستودع المؤونة الموجود تحت المطبخ، وضعوني في السجن ثلاثين يوماً كنت مرتاحاً هناك، ولكنهم أرسلوني إلى هنا، اتفو، إنني الآن نصف مجنون وهم يريدونني مجنوناً كاملاً.

سحب نفساً من سيجارته ثم تابع:

– خذ نفساً من السيجارة! أعطاه السيجارة. في المرة القادمة سأرمي مدحت باشا! نعم؟ لا تعرفه... آ؟ إنه قائد الفرقة هنا وهو يقبع في جحره في الغابة، وعندما يشتهي مضاجعة زوجاته يرحل إلى قصره، وهناك تقم زوجاته حفلاً على كرشه حتى ينحف. سأقتله يوماً ولكن إياك أن تقول ذلك لأحد، هل تحب الراكي؟

قال ربيع وهو ينفث الدخان ذا الرائحة الكريهة:

– ما هذا التتن يا الله؟ كأنه خرقة، وما هذا الراكي؟

– إنه العرق، عرق يوناني أصيل، لم تشرب منه... آ؟ هناك أرملة يونانية في القرية، وأشار إلى خلف الغابة، تقدم لي زجاجة كلما ذهبت إليها...

– ولماذا تدفع لك بالزجاجة؟ هل تنظف لها الزريبة؟

– ليس عندها حيوان غيري. إنني أضاجعها. ضحك ربيع حتى انتابته موجة سعال قوية من فعل دخان السيجارة فأعادها هـ. سأذهب الليلة إليها، هل تذهب معي؟ .... ماذا؟ كلا؟ ولم لا؟ سوف تعجبها كثيراً، إنك وسيم وقوي، لست ضعيفاً وأطرش مثلي.

– لا أريد أن أضاجع قحباتك أيها المجنون، قاطعه ربيع.

– إنك على حق، أنا مجنون، ولكنها أرمة محترمة وليست مومساً، على كل حال إنك تعجبني سأحضر لك من عندها دجاجة مسلوقة وزجاجة راكي، إلى اللقاء.

– إلى اللقاء، قالها ربيع وهو ناعس، تبعه بنظره، كان محفوظ يميل إلى اليمين وإلى اليسار، كالنواس عندما يسير، كان يرتدي معطفاً عسكرياً كبيراً لا يناسبه فاستغرب ربيع كيف يتحمل هذا الإنسان الضعيف ثقل المعطف.

في المساء، هبت ريح قوية، قطبية، على السهل، التجأ الجنود إلى الخنادق

يحتمون من الصقيع بعد أن أشعلوا أغصان أشجار الغابة المتيبسة وراحوا يتلذذون بالدفء. كانت الرياح تصفر فوق رؤوسهم وتقذفهم بالأعشاب اليابسة وبالغبار، كانت أصوات الأشجار وهي تتلاطم تسمع من الخنادق، أما النار التي أشعلها ثلاثة من الجنود قريباً من مكان نوم ربيع فقد كانت تتراقص كالمجنونة، ترسم أشباحاً كثيرة على جدران الخندق، بينما اتكأ ربيع ساهماً في النار يفكر في حلب وفي أمه. في تلك الأثناء سقط جرذ من جرذان الحقول خطأ في الخندق، كان هارباً من العاصفة فأحدث هرجاً ومرجاً وتصايح الجنود وهم يحاولون قتله، ثم هدأ الجميع بعد أن لقنه أحد الجنود الدهاة درساً بأخمص بندقيته.

كان الجنود الثلاثة وهم الرجل صاحب الوجه المجدور والرجل السمين والثالث رجل اسمه صبحي ذو لحية غزاها الشيب وقد بلغ سن الأربعين، وهو عربي من مدينة إسكندرون، كان قد دب فيهم النشاط بعد أن لاحقوا الجرذ فراحوا يتناقشون بصوت عال لا يخو من السباب والشتائم، قال ذو الوجه المجدور:

– ضعوني في السجن، في زنزانة صغيرة لا تتسع لإنسان واحد ومع ذلك كان هناك سجين آخر، جلدة وعظمة، كان طوال النهار يفلّي رأسه ويسحق القمل بأظافره، مع أن القمل كان يتزايد كالجراد. وجدته مرة نائماً، كان القمل يسير على وجهه ومعطفه في خطوط، أما لحيته ورأسه فقد كانت تغلي، حلقت له رأسه ولحيته وبعد يومين لحقني القمل وراح يعج في رأسي كالشيطان، اتفوه، بصق من القرف، إن هذه الخنادق موبوءة، كل جندي يحمل نصف ثقله من القمل.

– يجب أن تنظف نفسك من القمل لكي لا تموت من فقر الدم ومن التيفوس، قال صبحي.

– وكيف؟ علي أن أذهب إلى حمام السلطان حتى أنظف نفسي من كل هذه القذارات.

– وأي سلطان سيدعك تدخل حمامه أيها الأحمق، سيشنقونك من عضوك، قال السمين.

– لا يهم، يقولون إنها حمام كبيرة، قال المجدور.

– سوف تتسع لك وله آ...؟ انظر إلى عجيزتك كم هي ناعمة، رد عليه

صبحي.

– صبراً يا رفاقي، قال السمين، مرة نزلت إلى المدينة لأتسوق، مررت على الحمام، قلت لنفسي يا ولد تحمم، مضى عليك شهران ولم تصب ولا حتى طاسة واحدة، وهناك حدثت معركة بالأيدي.

قالوا إن أحدهم لمس فخذ آغا كان يستحم، فضربه حتى سال الدم من وجهه. كان الرجل يقسم أنه لمس الآغا دون قصد، إلا أن الآغا أصر على أن الرجل لمسه عن قصد... وبينما كان الضرب مشتغلاً كان الجميع يحدقون بعجيزة الآغا البيضاء ويحسدون الرجل لأنه لمسها.

ضحك الجميع ثم توالد النكات القذرة، وفي منتصف الليل هدأ الجميع ونام بعضهم وراح بعضهم الآخر يحلم بعد أن طار النوم من أعينهم. راحت ندف رقيقة من الثلج تهطل على السهل وعلى الخنادق وعلى أجساد النائمين والحالمين، كان ربيع يحلم بعائشة ابنة أبي حديدة صاحب معمل النشاء، لقد تركت الباب مفتوحاً بعد أن أخذت منه الحاجيات التي اشتراها من السوق، كانت جميلة وهيفاء وذات عينين حالمتين، وقفت عند باب غرفتها وراحت تشير له أن يدخل:

– ادخل، لا تستح، إذا كنت سأنتظر حتى يزول الخجل فسأنتظر طويلاً! تعال يا ولد مالك واقفاً كالأبله، إنني امرأة، لماذا لم تخطني حتى الآن؟ انظر إلى شنبك لقد أصبحت رجلاً، تعال ضمني إلى صدرك، فإن كنت تريدني زوجة لك، عليك أن تكسر أضلعي بيديك أولاً، وهل تظن أن أبي سيطردك؟ لماذا لا تسأله؟ قال لي إنه ينتظرك، وإن لم تأت فسوف يبصق في وجهك، ويطردك من المعمل، من يملك تفاحة عليه أن يأكلها قبل أن تستوي وتتعفن، آها.. اخطُ أكثر، تعال، أنا أحبك أيضاً يا فارسي! ولماذا ترتعد؟ من رفسك على قفاك؟ إنك حافي القدمين أيها الرعديد، وأين وضعت صرمايتك؟ إنك ترتجف يا حبيبي، لا يهم، حافي أم لا، المهم أن لا ترتجف... ماذا؟ لست خائفاً...؟ بل من البرد؟ تعال لأضمك، سترى صدراً دافئاً، خذه، هذا هو صدري، من يجب عليه أن يعطي أغلى ما عنده!

ركض ربيع وخرج من الدار وهو يهرول، كان كالمذعور، لقد انقلبت عائشة إلى تمثال من الجليد قال في نفسه:

– لماذا علي أن أركض حافياً، ومن أين أتى البرد، إننا في شهر تموز آه... لقد تجمدت قدماي، علي أن أشعل ناراً. سقط ربيع على الأرض وتدحرج، ما عاد يشعر بأقدامه وفجأة... وجد نفسه معلقاً من قدميه بحبل، كانت هناك ألوف الديدان تأكل لحمه.

– آه، أمي، عائشة، إنني أموت، آه قدماي... قدماي.

كان يحلم، فتح عينيه، إنه ثقب في جدار الخندق، لم يكن معلقاً من قدميه، كانت قدماه خارج المعطف الذي غطى نفسه به، كان الثلج قد غطاهما، نهض ونفض الثلج عنه استغرب لكمية الثلوج التي هطلت، كان الثلج يغطي جدران الخندق، وكان السهل أبيض، واختفت الغابة بفعل ندف الثلج الذي كان يهل بكثافة، أما إلى الأمام حيث خنادق الإنكليز فقد كان كل شيء هادئاً، وكانت هناك نار أشعلها الحراس الإنكليز بجانب الخندق.

قال ربيع الزيات لنفسه بعد أن أنعشه منظر الثلج على السهل:

– أعوذ بالله، أي حلم هذا، لقد تجمدت قدماي بالفعل، انظري يا أمي ما يحدث لي. كان علي أن أتزوج عائشة، تقول رجل؟ طبعاً أنا رجل، وهل أنا حريمة، وهل تأتي امرأة إلى هنا، ولماذا انقلبت إلى تمثال من الجليد؟ كانت دائماً تشعرني بالحرارة عندما كنت أقابلها، وفي تلك المرة التي لمستها فيها، لقد تصبب العرق مني، وتلعثمت وقلت تفاهات لا معنى لها، وتحرك شيء أسفل بطني، ها... ها.. (ضحك) لم تستفد من كل الفرص يا ولد، شخص مثلك لا يجب أن يكون صبوراً إلى هذا الحد. كان يجب أن أفعل شيئاً ما، عند المومس سارة فشلت أول مرة، ولكن بعد ذلك جعلتها تتمتع، وفي إحدى المرات قبلتني، مع أن سارة لم تكن تقبل الزبائن، آه يا سارة، الأمور هنا ليست على ما يرام، ليست كما ف سريرك الدافئ العريض، إنني أستغرب لهذا السرير وأتمناه. لم أر سريراً بهذا العرض من قبل، وله رائحة لا أجدها في أي مكان، إلا عندها، رائحة عطور أم رائحة عرق جسد المرأة اللذيذ الدافئ؟ شم كفيه ليجد نفس الرائحة دون جدوى، إنه عرق المومسات، أي ابن قحبة الذي أرسلني إلى هنا؟ كان علي أن أكون في أحضان سارة، ولكن سارة هربت، تزوجت يهودياً وسافرت إلى فلسطين، لعل الناس هناك لا يعرفون عنها أي شيء، إنني اعرفها

جيداً، لديها هواية، الزنى عندها هواية وليس حرفة، سوف يصبح ذلك اليهودي الأبله قواداً ماهراً.

سمع صوت انسحاق الثلج، كان هناك رجل قادم من الغابة باتجاه الخنادق، كان يسير بصعوبة بسبب طراوة الثلج وانسحاقه تحت قدميه، وعندما اقترب الرجل عرفه ربيع، كان محفوظاً، إنه يرقص كالنواس.

سمع صوت الحارس العثماني يسأل:

– من أنت؟

– جندي من خدم السلطان.

– ماذا تفعل في هذا الوقت يا ابن الكلب؟

أجابه محفوظ:

– كنت عند أمك أتغوط.

فقال الحارس:

– اذهب، عليك ستين لعنة، تتغوط عند أمي أيها القميء؟ إنك تعملها في سروالك كالعادة ورائحتك نتنة من كيلومتر.

– اسكت وإلا اقتربت منك أكثر! قال محفوظ.

– اذهب ونم، صحيح إنك مجنون...!

قفز محفوظ داخل الخندق، كان وجهه مزرقاً من البرد. اقترب من ربيع وقال:

– آهه، إنك مستيقظ، لعلك تنتظرني...

– ولماذا أنتظرك؟ رد ربيع ثم عاد لينظر إلى السهل...

– لقد جئت بما وعدتك به، اخرج من تحت معطفه رزمة ملفوفة بخرقة، دجاجة مسلوقة وقنينة راكي، إنك تعجني أيها الرجل، سأكون كلبك الوفي.

مد محفوظ الخرقة على أرضية مكان نوم ربيع، ثم صب العرق في وعاء معدني وأضاف إليه قبضتين من الثلج الأبيض فاستحال لون العرق إلى حليبي وراحا يأكلان، شرب محفوظ وقال:

– في صحة أرملتي الجميلة فروساكي.

غبّ قليلاً من العرق فاحمر وجهه ثم قدم الوعاء إلى ربيع مشجعاً: هيا، اشرب

اشرب... سوف تعود روحك إليك. في هذا العرق سقطت دموع الأرملة فروساكي حزناً على زوجها، من يشرب دموع الأرامل يدخل الجنة!

– ولكنني لم أذقه من قبل.

– سوف تتعود يا أخي، خذ نفساً عميقاً ثم اشرب دون أن تتذوقه، ورأساً إلى حلقك.

شرب ربيع، تغير شكل وجهه كأنه اشمأز من رائحة نتنة، نفخ طويلاً وشهق:

– كذا في أمه، إنه بدون طعمة، قال ربيع وهو يحاول أن يعيد تنفسه إلى شكله الطبيعي.

– عندما تشرب إياك أن تفكر كيف ستفعل ذلك، إذا فعلت نفس الشيء عندما تأكل فسوف تموت مختنقاً.

شرب ربيع ثانية، وتمزمز ثم أعطى الوعاء إلى محفوظ.

– إنه يحرق معدتي، على كل إنه يشعرني بالدفء، ما شكل أرملتك هذه؟

زفر محفوظ ثم وضع الوعاء:

– إنها جميلة، صدرها ممتلئ وكذلك ردفاها، ولديها بيت جميل أبيض، كلمتها عنك هذه الليلة، قالت إنها تود أن ترك، إنها لا تشبع يا أخي.

سحق محفوظ فخذ الدجاجة بأسنانه وشرب من الوعاء، قال وهو يتجشأ:

– طردتني اليوم، قذفتني بفردة حذاء عتيقة وضخمة، الله أعلم من أين أتت بها، كانت ترغب أكثر من استطاعتي، فتركتها نصف عارية تنشج وتسب باليونانية، عليك أن تشبعها أنت يا أخي! أما أنا فيكفيني زجاجة راكي كل أسبوع، حتى تنتهي هذه الحرب الملعونة، إنني نصف مجنون أو هكذا يحسبون، وسأكون في تمام عقلي عندما أقتل مدحت باشا.

توقف ربيع عن المضغ وهمس:

– إياك أن تفعل شيئاً، إنك فاقد العقل بالفعل.

– عليك أن ترفع صوتك لأنني لا أسمعك ولماذا أنت مذعور؟

رد ربيع وهو يهدده بقبضته:

– سوف يقتلونك قبل أن تصل إليه.

– إنني أحتفظ ببندقية إنكليزية بحالة جيدة في الغابة، أما الرصاصات فهي في جيبي.

اخرج ست رصاصات دافئة وعرضها على ربيع.

– ولماذا تريد قتله؟

– عندما هربت إلى القرية ثم أعادوني إلى هنا استدعاني مدحت باشا وجلدني برسن حمار. عندها بصقت في وجهه فأوقفني أما شجرة وأقسم أنه سيطلق النار علي، تشهدت، وبالفعل كبس على الزناد إلا أن الرصاصة لم تنطلق، كانت فاسدة، قذف البندقية إلى الأرض، وراح يضربني بيديه ورجليه حتى فقدت الوعي، لم أمت ولكنني أقسمت أن أقتله.

عب طويلاً من الوعاء ثم مسح شفتي بكم معطفه، وبدأ يلف سيجارة، راقبه ربيع وقد بدأ يحس بخمول في رأسه ثم أضاف محفوظ:

– إنه يتلذذ بالقتل، فقد قتل حتى الآن ثلاثة أسرى من الإنكليز يقولون إنه يضاجعهم ثم يذبحهم بالسكين، وهو الذي قتل زوج الأرملة فروساكي، إن الجميع يتمنون موته، في الماضي كان يأتي إلى الخنادق ويعطي الأوامر بالهجوم على الخنادق المعادية وكل من يتلكأ يأمر بإطلاق النار عليه، والهجوم على الخنادق الإنجليزية ليس بالأمر السهل حيث أن نصف المهاجمين يقتلون، وما تكاد ببالغ الصعوبة تقارب تلك الخنادق حتى تعود إلى هنا، لا يهمه كم من الناس سيقتل، وهو يعلم أن هذا العمل لا معنى له.

أشعل السيجارة ثم أعطاها لربيع وراح يلف سيجارة أخرى لنفسه. كانت عيناه قد احمرتا إلا أن شعاعاً رهيباً صامتاً راح ينعكس فيهما، مد لسانه ورطب الورقة ثم أشعلها وراح يدخن بصمت، سعل ثم قال:

– لذلك سأقتله لقد أقسمت لفروساكي ولعلها تؤويني عندها لأنني سأثأر لموت زوجها.

نهض ربيع وجمع قليلاً من الثلج الأبيض في الوعاء ثم صب ك ما بقي في الزجاجة على الثلج وراح يشرب، أحس بحرارة تُلهِب وجهه وأحشاءه، كان لسانه قد أصبح ثقيلاً، ضرب ساق محفوظ بكفه ثم قرب وجهه من أذنه وهمس:

– يقولون إنك مجنون... آ؟ لست كذلك، هم المجانين، اشرب يا أخ، يبدو لي أنني بدأت أحب هذا الشراب، سوف نقتل مدحت باشا سوية (ضحك ربيع) قل لأرملتك ذلك، سوف نقتل ذاك الخنزير!

نام محفوظ في مكانه وهو مقرفص، وعلا شخيره، صاحت الديكة من بعيد، وراح الحارس الإنكليزي يغني أغنية حزينة انسابت مع الريح الخفيفة وطافت على خنادق الأتراك.

أصاخ الحارس التركي السمع، أما ربع فقد انسابت دمعتان من عينيه وهو يستمع، لم يكن يفهم معنى الأغنية، إلا أن اللحن فجر فيه أشواقاً عدة، ولما انتهت الأغنية وسكت الإنكليزي أحس ربيع بالبرد، وكأن الصمت قد أطفأ الجمر الذي كان يتدفأ به.

* * *